شرح كتاب التوحيد

لفضيلة الشيخ

د. صالح بن عبدالعزيز بن عثمان سندي

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة بكلية الدعوة بالجامعة الإسلامية

[الشريط 04]

المادّة لم تُراجَع من قِبل الشيخ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، وبعد:

فإن الإمام المجدّد رحمه الله بعد أن عقد الباب الأول في بيان حقيقة التوحيد وبيان أهميته ووجوبه، كأنّ النفوس تشوّفت إلى معرفة فضل هذا التوحيد، فعقد لأجل ذلك الإمامُ رحمه الله هذا البابَ فقال:

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وجاء في نسخة اعتمدها صاحب الفتح: **باب بيان فضل التوحيد وما يكفّر من الذنوب**

ومن طريقة أهل العلم أنهم يقسّمون كتب العلم المصنفة إلى أبواب وإلى فصول، وذلك لأنه يسهُل به الوصول إلى مظانّ المسألة، كما أن في ذلك تنشيطا للنفوس.

والباب في اللغة: هو الموصل إلى المقصود، والمقصود به في اصطلاح المصنفين: جملة من العلم تشتمل على فصول ومسائل غالبا.

قال المصنف رحمه الله: باب فضل التوحيد

بابُ أو بابٌ، كلمة مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف: هذا باب فضل التوحيد، وإن شئت فقل: مرفوعة على أنها مبتدأ لخبر محذوف: باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب هذا.

وفضل التوحيد شيء عظيم، فالتوحيد أحسن الحسنات وأكملها وأرفعها وأعظمها، وهو أساس دعوة المرسلين وأكمل ما فيها، بل ليس في دعوات المرسلين ولا في كتب رب العالمين شيء أعظم من التوحيد، وفضائل التوحيد مما يتعذّر على الطالب أن يحصيَها، وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب جملة من النصوص التي تبيّن فضل التوحيد.

ومن فضل التوحيد أنه يكفر الذنوب، قال رحمه الله: باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، (وما) ههنا قيل إنا موصولة؛ يعني: والذي يكفر من الذنوب، وقيل مصدرية؛ وتكفيره الذنوب، وهذا أولى دفعا للإيهام بأن من الذنوب ما لا يكفّره التوحيد، هذا إذا جعلناها موصولة، فالأولى أن نجعلها مصدرية: باب فضل التوحيد وتكفيره الذنوب، وعليه فيكون العطف بالواو ههنا من باب عطف الخاص بعد العام، يعني من فضل التوحيد أنه يكفر الذنوب.

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾

بدأ المؤلف رحمه الله هذا الباب بذكر هذه الآية، وهي في معرِض مُحاجّة إبراهيم عليه السلام لقومه، يقول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾،

اللَّبْسُ: هو الخَلْطُ

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه

والأصل أن الظلم يشمل أصناف المحرمات جميعا، فيشمل الشرك: كبيره وصغيره، ويشمل الذنوب: كبيرها وصغيرها، وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم -كما في حديث ابن مسعود في الصحيحين- الظلم ههنا بالشرك، فإن هذه الآية لما نزلت، شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: يا رسول الله، وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ تلاحظ ههما أنهم حملوا الظلم على العموم في سائر أجناس الظلم، فمن الذي سلم من ظلم نفسه بالمعاصي؟ فبيّن ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "ليس الذي تذهبون إليه، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾"، ففسر الظلمَ في هذه الآية النبيُّ صلى الله عليه وسلم بأنه الشرك، وهل هذا يعني أن من سلم من الشرك ولكنه اقترف الذنوب والمعاصي فإنه يحصل له الأمن والاهتداء؟

الجواب أن المقام فيه تفصيل؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد أن يبيّن أن الاهتداء التام والأمن التام ينتفي مطلقا عمّن لم يحصّل الإيمان، ولم يرد أن من وقع منه ظلم لنفسه لم يفُتْه شيء من الأمن والاهتداء.

بعبارة أخرى: هذه الآية –مع تفسير النبي صلى الله عليه وسلم- دلّت على أن الأمن التام والاهتداء التام إنما يكون لمن كمُل في إيمانه، ولا يمنع هذا أن يكون من اقترف شيئا من الظلم –بمعنى: حصل له مطلق الظلم- أنه يزول عنه شيء من الاهتداء ومن الأمن.

وعليه: أراد النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن يدفع توهّم أنّ العاصي قد ذهب عنه جنس الاهتداء والأمن، فلا كون له اهتداء وأمن أبدا مطلقا، ولا يمنع هذا أن يكون الأمن والاهتداء في حق العاصي ناقصا، فمن عنده مطلق الإيمان –بمعنى: أن عنده شيئا من الظلم لنفسه بالمعاصي- أنه يزول عنه شيء من الاهتداء والأمن ، فيكون له مطلق الأمن والاهتداء.

والخلاصة: أن الأمن التام والاهتداء التام يكون لصاحب الإيمان المطلق، وأن مطلق الأمن ومطلق الاهتداء يكون لمن معه مطلق الأمن.

والأمن والاهتداء فُسّر من بعض أهل العلم: بأنه الاهتداء في الدنيا والأمن في الآخرة، والأقرب –والله تعالى أعلم- أنه يعُمّ الدنيا والآخرة، فالأمن في الدنيا وفي الآخرة والاهتداء في الدنيا وفي الآخرة؛

فالأمن في الدنيا: يأمن الإنسان بأنواع الأمن

ويأمن في الآخرة: من الفزع

ويهتدي في الدنيا: إلى الحق وإلى صراط الله المستقيم ويكون موفّقا في أموره

ويهتدي في الآخرة إلى الجنة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾، فسر هذا بعض أهل التفسير بأنه الاهتداء في الآخرة إلى طريق الجنة.

قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، ووجه إيرادها في هذا الباب: بيان فضل التوحيد، فإن من حصّل الإيمان الكامل والتوحيد التام فإنه يحصل له الأمن والاهتداء المطلق، وهذا من فضل التوحيد.

وهل هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ من كلام إبراهيم عليه السلام في تتمة مُحاجّته لقومه؟ أو هي حُكم فصلٌ من الله عز وجل بين إبراهيم وبين قومه؟ قولان لأهل العلم في تفسير هذه الآية.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنةَ حق والنارَ حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل" أخرجاه.

هذا الحديث الأول في هذا الباب وهو حديث عبادة المشهور المُخَرَّج في الصحيحين، وهو من أجمع أحاديث العقيدة كما قال هذا بعض أهل العلم.

هذا الحديث فيه أن من أتى بالتوحيد فإنه يدخله الجنة على ما كان من العمل، والمقصود أنه يدخله الجنة على عمله الذي عمله من صالح أو فاسد، هذا هو جواب الشرط: من شهد...أدخله، وهذه المسألة من المسائل المهمة التي ينبغي أن تُفهم على وجهها وفق طريقة أهل العلم:

جاء في نصوص كثيرة متواترة أن من قال: لا إله إلا الله، أو شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة، وسيمر معنا أيضا من حديث عِتبان أن من شهد شهادة التوحيد حرّمه الله على النار، مع أنه قد تواترت النصوص أن من أهل التوحيد –الذين عصَوا الله عز وجل- أنهم سيدخلون النار، وأنه سيخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ومرّ معنا قوله صلى الله عليه وسلم: "يخرج قوم من أهل التوحيد من النار"، فكيف الجمع بين هذه النصوص؟

المقطوع به أنه لا تعارض، ولا يقع التعارض بين النصوص، وشأن هل السنة والجماعة في التلقي وفي الاستدلال: الجمع بين النصوص، وهذه من أهم قواعد ومميزات أهل السنة والجماعة، أنهم يجمعون النصوص ويؤلفون بينها ويعاملونها معاملة النص الواحد، لا كطريقة أهل البدع الذين يؤمنون ببعضٍ ويكفرون أو يتركون بعضا.

وتوضيح المقام ههنا –وهذه المسألة مما تكلم الناس فيها كثيرا، وكان لهم فيها اتجاهات متعددة- أذكر قولا جامعا مختصرا إن شاء الله:

هذه النصوص هي من نصوص الوعد، الوعد بدخول الجنة وتحريم النار على الموحد إلى غير ذلك، والوعد ههنا منقسم عند أهل السنة إلى قسمين: إلى الوعد المطلق وإلى مطلق الوعد، بمعنى: إلى الوعد الكامل التام وإلى مطلق الوعد أو حصول شيء من الوعد لمن قام بموجب ذلك، وكلا هذين الوعدين لهما شروط –يعني: هذا له شروط وهذا له شروط وهذا له أهله وهذا له أهله-:

أما الوعد المطلق: فإنه يعني الدخول إلى الجنة ابتداء وتحريم دخول النار، وهذا مشروط عند أهل العلم بشروط، ولذلك يقعِّد أهل العلم قاعة مهمة ههنا فيقولون: إن هذه النصوص فيها بيان أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة، وكل سبب لا يقتضي مُسبَّبه إلا إذا استجمع شروطَه وانتفت عنه موانعه، هذا مرادنا بقولنا: إنها قُيِّدت بالقيود الثِّقال، فشرط حصول الوعد المطلق لمن قال لا إله إلا الله، وشرط تحريم دخول النار –لا يدخلها البتة- عند أهل العلم هو: أنه يأتي بالتوحيد بأصله وبكماله الواجب، وهذا يقتضي أن يقوم بـ لا إله إلا الله علما وعملا، فيقولها بصدق ويقين وإخلاص، ويأتي بالواجبات ويترك الكبائر، وهذا الاشتراط مُستفاد من النصوص من جهتين:

الجهة الأولى: النصوص التي فيها هذا التقييد في قول لا إله إلا الله، وذلك أنه سيمر معنا في حديث عتبان: "فإن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله"، وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أنه يقولها صدقا من قلبه"، وأمثال هذه النصوص، فهذه قيود في قولها، يعني لابدّ أن يقولها وقد كان مريدا مبتغيا وجه الله، والمبتغي لابد أن يأتي بأسباب حصول هذه البُغية، كذلك الذي يأتي فيها بصدق ويقين ويكون غير شاكّ في ذلك لابد أن يحصل أثر ذلك على جوارحه، فيأتي بالواجبات ويمتنع عن المحرمات، لأن صلاح القلب يلزم منه صلاح الباطن[1] ولابد، "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله"، إذا جاءت النصوص مطلقة وجاءت مقيدة، يعني: "من قال لا إله إلا الله" وجاء "يبتغي بذلك وجه الله"، "صدقا من قلبه"، إذا هذا المطلق يُحمل على هذا المقيد.

ثم نقول أيضا وهذه الجهة الثانية: جاءت نصوص فيها قيود أخرى مع قول لا إله إلا الله، تلك قيود في قول لا إله إلا الله، وهذه قيود مع قول لا إله إلا الله، وإن شئت فقل: تلك قيود باطنة وهذه قيود ظاهرة، من ذلك ما خرّجه الإمام أحمد إسناد جيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من عبد الله لا يشرك به شيئا –هذا هو التوحيد، هذا هو لا إله إلا الله- وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان واجتنب الكبائر فله الجنة –أو قال: دخل الجنة-"، تلاحظ ههنا أنه جاءت هنا قيود زائدة على التوحيد، فهذا يعني أنه لابد من التوحيد ولابد أيضا من الواجبات حتى يحصل الإنسان على الوعد بدخول الجنة، ومن ذلك أيضا ما ثبت في البخاري عنه صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله فقال: دُلَّني على عمل يدخلني الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: "تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم"، تلاحظ هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالتوحيد، ثم أمره بمكملات التوحيد التي هي الإتيان بالواجبات التي أمر الله سبحانه بها.

---
[1] لعله يريد: الظاهر

وبناءً على ذلك، تلك النصوص المطلقة مقيدة إما في قولها –بأن يأتي بها على ما ذكرت من الإخلاص والصدق واليقين التام، وهذا لابدّ أن يظهر له أثر على الجوارح– أو بالنصوص التي فيها اشتراط أداء الواجبات وترك المحرمات.

إذن، الذي يأتي بهذا التوحيد التام له الوعد المطلق، وهو الدخول إلى الجنة ابتداء، وتحريم دخول النار –لا تمسّه النار البتة–، وهذا حاصل لشخصين:

إما شخص قالها بيقين وإخلاص تام، وأتى بالواجبات وترك الكبائر، لأن من قالها أصلا بهذا اليقين والإخلاص لا يمكن أن يأتي بكبيرة ولا أن يصر على صغيرة، وإذا حصل منه ذلك كان على ندور، ثم إنه يبادر بالتوبة مباشرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾، قد يقع، وقد يزلّ صاحب التوحيد التام، لكنه لا يصر على المعصية، وهذا يكون له الوعد المطلق.

أو يأتي بالذنوب والمعاصي ويقع منه ما يقع، يأتي بالكبائر ويصر على الصغائر، لكنه يُوفَّق لقول لا إله إلا الله بيقين وصدق وإخلاص تام –بمعنى: يأتي بالتوحيد، ويجدّد توحيده بيقين وإخلاص كامل– ثم يموت على ذلك، يوفق على ذلك قبل موته فيموت عليه، فمثل هذا أيضا يحصل له الوعد المطلق.

إذن هو إما لا يقع منه الكبائر أصلا ويكون آتيا بالواجب عليه، وإما أن يقع منه ذلك لكنه يوفق إلى هذا التوحيد الكامل قبل موته.

فهذا وذاك يحصل لهم الوعد المطلق برحمة الله سبحانه وتعالى.

أما مطلق الوعد، فإن المراد بذلك دخول الجنة مآلا وتحريم الخلود في الجنة عليه، بمعنى أنه قد يعذّب في النار لكنه لا يخلد فيها، ويكون مآل أمره إلى الجنة، وهذا مقيَّد بأن يأتي بأصل التوحيد ويسلم من المكفّرات، إذا أتى بأصل التوحيد وسلم من المكفرات –وهذا حال أهل الكبائر– فهذا له مطلق الوعد.

وبناء عليه، يُفهم قوله صلى الله عليه وسلم: "دخل الجنة" إما الدخول المطلق –يعني: الوعد المطلق بالدخول ابتداء، وهذا له أهله الذين لهم التوحيد التام– وإما يكون له مطلق الوعد –بمعنى: أنه سيدخل الجنة ولابد ولو بعد حين، وإذا عُذّب في النار فإنه يحرم عليه الخلود فيها–.

ولابد أن نلاحظ أصلا لا ينبغي إغفاله، وهو: قد يشاء الله عز وجل أن يعفو عن أصحاب الصنف الثاني –أصحاب أصل التوحيد، أهل الكبائر– فلا يدخلون النار، ويدخلون الجنة ابتداء، هذا يرجع إلى أصل آخر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وعندنا قاعدة: أن جميع الوعيد الذي يرد في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنه مُقيَّد بهذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

الخلاصة: أن من فهم هذه النصوص على هذا الوجه فإنه يزول عنه أيّ إشكال يرد، وتجتمع عنده النصوص وتأتلف، وهذا الذي كان عليه أهل العلم، وذكر معناه غير واحد من أأهل العلم؛ قيل للحسن البصري رحمه الله: إن قوما يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال رحمه الله: من قال لا إله إلا الله وأدّى حقّها وفرضها دخل الجنة. وهذا راجع إلى ما ذكرناه، وجاء في البخاري عن وهب بن منبّه رحمه الله أنه قيل له: إن لا إله إلا الله مفتاح الجنة، فقال: إن لكل مفتاح أسنانا، فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتِح لك، وإلا لم يُفتح لك. وهذا كله راجع إلى ما ذكرت.

فالخلاصة: أن من فهم نصوص الوعد على قول لا إله إلا الله وفق هذا التوجيه فإنه سيكون آخذا بأطراف النصوص، ومتوسطا بين طرفَي الضلال: الإرجاء ومذهب الوعيدية، ومن أحسن من حرّر هذه المسألة: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه تفسير آيات أشكلت، فهذا من أحسن المواضع التي ضبطت هذا الموضوع، فيحسُن بطالب العلم أن ينظر في هذا الموضع من هذا الكتاب العظيم.

نرجع الآن إلى توضيح هذا الحديث –حديث عبادة–، قال عليه الصلاة والسلام: "من شهد أن لا إله إلا الله"، شهد بمعنى: قال عن علم وعمل، فلابد من القول، ولابد أن يكون هذا القول عن علم ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ولا يكفي هذا حتي يعمل بمقتضى هذه الشهادة، ومقتضى هذه الشهادة: ترك الشرك، والإخلاص لله عز وجل، من أتى بذلك فقد شهد بالحق.

"شهد أنْ لا إله": أن هنا هي المخففة من الثقيلة، لا يقال: أنّ لا إله، وإنما يقال: أنْ لا إله.

ومرّ معنا تفسير كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وأنها تشتمل على نفي وإثبات، نفي الإلهية عمّا سوى الله عز وجل، وإثباتُها لله عز وجل وحده لا شريك له، وسيأتي باب خاص لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، ويُرجأ التفصيل في ذلك إلى موضعه.

قال صلى الله عليه وسلم: "وحده لا شريك له"، وحده: حالٌ من لفظ الجلالة، ويقول أهل العلم: كلمة (وحده) تأكيد للإثبات، تأكيد لـ (إلا الله)، وما بعدها (لا شريك له) تأكيد للنفي (لا إله)، تلاحظ أنّه جاء ههنا مؤكِّدان، قال الشيخ ابن قاسم رحمه الله: تأكيدٌ بعد تأكيد اهتمامٌ بمقام التوحيد.

قال: "وأن محمدا عبده ورسوله"، محمدُ بن عبد الله القُرَشِيّ الهاشِمِيّ، رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء وصفه في هذا الحديث بأنه عبده ورسوله، واجتماعُ هذين الوصفين اجتماعٌ لأعلى مراتب البشر، أن يكون عبدا ورسولا، وهؤلاء رُسُل الله عز وجل هم صفوة البشر، وأعظمهم تحقيقا لوصف العُبوديّة وأداء الرّسالة: هو النبي محمدٌ صلى الله عليه وسلم، فهو إذا أفضل البشر عليه الصلاة والسلام.

والإيمان بنبوته ورسالته عليه الصلاة والسلام شَطْرُ التوحيد، فلا تنفع (لا إله إلا الله) إلا بضميمة شهادة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر هذين الوصفين –كما يقول أهل العلم– ردٌّ على طَرَفَي الإفراط والتفريط، عبده ورسوله؛

قوله: "عبده" فيه ردّ على أهل الإفراط الذين رفعوه من مقام العبوديّة إلى أن يكون إلها معبودا، وهؤلاء أهل إفراط، الردّ عليهم بقوله: "عبده".

وصنف حصل عندهم تفريط أو تقصير في الإيمان برسالته عليه الصلاة والسلام، فصار عندهم نَقصٌ في اتّباعه وفي تقديم الآراء والأهواء على سُنَّتِهِ عليه الصلاة والسلام، وهؤلاء أهل تفريط، والردّ عليهم بقوله: "ورسوله".

وبناء عليه، فمحمد صلى الله عليه وسلم عبدُه ورسولُه، عبدٌ لا يُعبد ورسولٌ لا يُكذَّب، بل يُطاع ويُتَّبع عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: "وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه"، عيسى عليه السلام أحد أفضل الأنبياء والرسل، بل هو أحد أولي العزم من الرّسل الذين هم –على التحقيق– أفضل الأنبياء والرسل.

وعيسى عليه السلام، يؤمن المسلمون في حقه بأنه عبد الله ورسوله، كالنبي محمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، لكنْ الاتّباع خاصّ بالنبي صلى الله عليه وسلم لا لعيسى عليه السلام، إنما يُؤمَن بأنه عبده ورسوله، لكن الاتباع إنما هو خاص للمسلمين بالنبي صلى الله عليه وسلم.

قال: "وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه"، (كلمته) يعني أنه كان بكلمته، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: ليس عيسى هو الكلمة، وإنما كان بالكلمة. فكان عيسى بقول: كُنْ، يعني: كان بـ (كُنْ)، كان بالكلمة وليس هو الكلمة، كلام الله عز وجل صفة

له، وعيسى عبد مخلوق لله عز وجل، فعيسى عليه الصلاة والسلام كان بقول: كُن، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وروح منه: يعني أن الله عز وجل بعث جبريلَ عليه السلام بروح مخلوقة منه سبحانه وتعالى، ونفخ جبريلُ عليه السلام في جَيْب مريم فكان الأمر –كما قال أهل العلم-: جبريلُ نَفَخَ واللهُ خَلق بـ –كُن–، فهذه الرُّوح قد ضلّ في فهم المراد منها طوائف من البشر، ألا وهم النصارى؛ حيث زعموا أن هذه الرّوح صفة لله عز وجل حَلَّت في عيسى، وهذا باطل وضلال، بل هذه الروح روح مخلوقة لله سبحانه وتعالى، وإضافتها إليه سبحانه وتعالى بقوله: "وروح منه"، (من) ههنا –كما يقول أهل العلم- لابتداء الغاية، وهذا له نظائر في كتاب الله عز وجل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ يعني: خلقا من الله عز وجل، مُبتدأ منه سبحانه وتعالى خَلقا، وليس أنه صفة لله سبحانه وتعالى.

ومعلوم قاعدة أهل العلم في المضاف إلى الله عز وجل، وأنه ينقسم إلى قسمين:

منه إضافة الوصف، ومنه إضافة المخلوق أو العَين القائمة بنفسها، أما إضافة الصفة، فهي من إضافة صفة لله عز وجل إليه، لأنها لا تقوم بنفسها.

وأما المخلوق، فإنه يُضاف إلى الله عز وجل على أنه مخلوق لله عز وجل، كما قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

فَإِضَافَةُ الأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِمَنْ قَامَتْ بِهِ كَإِرَادَةِ الرَّحمَن

وإِضَافَةُ الأَعْيَانِ ثَابِتَةٌ لَهُ   مِلْكًا وَخَلْقًا ما هُما سِيَّانِ

فانظُر إلى بَيْتِ الإِله وعِلْمِهِ   لَمَا أُضِيفَا كَيفَ يَفتَرِقَانِ

وإضافة المخلوق إلى الله عز وجل جاءت على ضربين:

1/ إضافة لبيان أنها داخلة في عموم مخلوقات الله عز وجل، وأنها مِلك لله سبحانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾، وكما يقول القائل: المالُ مالُ اللهِ –مثلا–

2/ إضافة تشريف، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾، وأمثال ذلك من النصوص ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾، هذه من باب إضافة التشريف.

وكلا الإضافتين من إضافة المخلوق إلى الخالق، والروحُ هذه التي أُضيفَت إلى الله عز وجل هي من هذا الباب، هي من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

قال: "والجنةَ حقٌّ والنارَ حقٌّ"، الجنة والنار، يؤمن المؤمنون أنها حقّ، وكلاهما موجودتان الآن، وباقيتان لا تفنَيان، وأن فيهما من أنواع الثواب ومن أنواع العقاب ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهما شيء آخر لا يخطُرُ على قلب البشر، ولا يتصوّرُه إنسان الآن، فهذا ممّا يؤمن به المسلمون تصديقا لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال: "أدخله الله الجنة على ما كان من العمل"، ونرجع إلى القاعدة السابقة وبها يتّضح المقام؛

أدخله الله الجنة: إمّا ابتداء، وإما مآلا؛ ابتداء: إذا كان من أهل التوحيد التّام، أو ممّن شاء الله أن يعفوَ عنه ويغفر، وإما مآلا: إذا كان من أصحاب الكبائر ولم تُدْرِكْه رحمة الله سبحانه وتعالى، فإنه حينئذ يدخل النار، لكن سيدخل الجنة ولو بعد حين.

ولهما في حديث عِتْبَان رضي الله عنه: "فإن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله"

قال: (ولهما) يعني للشيخين في صحيحَيهما.

(عن عِتبان) وعِتبان هو ابن مالك الأنصاري.

ومن اللّطيف: أن هذا رابع صحابيّ يأتي حتى الآن في كتاب التوحيد وكلُّهم بدريون، ابن مسعود ومُعاذ وعُبادة وعِتبان، كلُّهم بدريّون، فابتدأ المؤلف رحمه الله بذكر أربعة من الصحابة كلهم بدريّون.

هذا المقطع من الحديث هو الشّاهد والمناسب لدخوله في هذا الباب، والحديث طويل، وفيه: زيارة النبي صلى الله عليه وسلم لعِتبان بناء على طلبه كي يُصلّي له في بيته بعد أن ضَعُف بصرُه.

قال صلى الله عليه وسلم: "فإن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله"، هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث محمود بن الرَّبيع عن عِتبان، وجاء عند مسلم من حديث أنس عن عِتبان بنحوه، وجاء في رواية عند أحمد عن أنس عن عِتبان، ذكر الحديث ثمّ عَقَّب على هذا أنسٌ رضي الله عنه بقوله: فما فَرِحَ المسلمون فرحا كفرحهم بما قال عليه الصلاة والسلام يومئذ، يعني هذا الحديث من المبشِّرات العظيمة لأهل التوحيد التي اقتضت هذا الفرح العظيم من لَدُنْ أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا مما يدلّك على فضل التوحيد، وأن هذا التوحيد يُنجي من النار؛ كمالُه يُنجي من دخولها، وقليله يُنجي من الخلود فيها – عياذا بالله منها–، وهذا برحمة الله عز وجل وعفوِه.

والتحريم ههنا كما سبق: تمتنع عليه النار فلا يدخلها ابتداء، أو أنه يحرم عليه الخلود فيها، على حسب ما مضى من التفصيل الذي سبق.

وهذا الحديث فيه قَيْد –كما سبق– مُهِمّ، ومن جمعه مع النصوص المطلقة تَبَيَّنَ له غرور المغرورين، كما قال إمام الدّعوة في إحدى المسائل، فإن من قال بذلك يبتغي وجه الله فلابدّ أن يكون مُحصِّلا للأسباب الموصلة لبُغيَتِه، وإلا فإنه لا يكون يبتغي وجه الله سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث فيه –كما ذكر المؤلف رحمه الله– أن من مسائل هذا الباب: إثبات الصفات الله عز وجل، ففيه إثبات صفة الوجه، وسيأتي معنا أيضا إثبات صفة الكلام، وإثبات عُلُوِّ الله سبحانه وتعالى، فقال: فيه إثبات الصّفات خلافا للأشعريّة، وجاء في نسخة لكتاب التوحيد: خلافا للمعطِّلة، والأشاعرة من المعطّلة، لكن كلمة المُعطِّلة أعمّ، فتشمَل الأشاعرة وغيرَهُم، وهذا من عِناية المؤلف رحمه الله بالنصيحة للمسلمين، تحذيرِهِم من البدع ومن أهل البدع.

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قال موسى: يا رب علِّمني شيئا أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله ; قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كِفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله". رواه ابنُ حبانَ والحاكمُ وصححه.

هذا حديث أبي سعيد الخُدريّ، وهو مُخرَّج –كما ذكر المؤلف– عند ابنِ حِبّانَ والحاكِم، وخرّجَه النّسائيُّ أيضا في «عمل اليوم والليلة»، وغيرهُم، وهذا الحديث فيه بحث من جهة الإسناد؛ فإنّه من رواية دَرَّاجٍ أبي السَّمحِ عن أبي الهَيثَم، وفي هذه الرّواية ضَعف بل وفيها مناكير، ولأجل هذا ضعّف هذا الحديث جمعٌ من أهل العلم، وإن كان صحّحه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» في المُجلّد 11، وهذا الحديث له شاهد عند الإمام أحمد بسند جيّد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، ولكن ليس فيه ذكر الحديث والكلام بين موسى وربّه سبحانه وتعالى، وإنما فيه كلام بين نوح وابنه؛ فإن نوحا عليه السلام –فيما جاء في هذا الحديث الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم– "أوصى ابنه عند موته بـ لا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرَضين السّبع لو وُضِعَت في كِفَّة، ولا إله إلا الله في كِفَّة، لَرَجَحَت بِهِنّ لا إله إلا الله"، تلاحظ أن هذا الحديث يشهد في معناه لحديث أبي سعيد السابق، وجاء أيضا من قَول كعب الأحبار عند ابن أبي شيبة بإسناد صحيح قريب من لفظ حديث أبي سعيد الخدري.

المقصود أن هذا الحديث فيه بيان عظمة التوحيد، وعظمة كلمة التوحيد لا إله إلا الله.

موسى عليه السلام سأل ربَّه أن يعلِّمه شيئا يذكُرُه ويدعوه به، فأمره سبحانه وتعالى بـ لا إله إلا الله، قال: يا موسى، قل لا إله إلا الله.

ولا إله إلا الله ذِكرٌ ودُعاءٌ معا؛ فهي ذكر –وهذا واضح-، وهي دعاء لأنّ الذّاكر يسأل ربّه ويطلُبُه بهذا الذّكر جنّتَه ومغفرتَه إلى غير ذلك، فهي ذكر ودعاء معا.

وموسى عليه السلام كان يتشوّفُ إلى شيء يختصّ به، والنّفوس –كما تعلمون- مجبولة على الفرح بالشيء الذي تَظْفَرُ به وحدَها، وتختصّ به، لأن في هذا منقبةً ومزيّة لها، فموسى عليه السلام طلب شيئا يختص به من دون سائر الناس، فقال: كُلُّ عبادِك يقولون لا إله إلا الله، ليس هذا انتقاصا من قدر هذه الكلمة العظيمة، لكنّها رغبةٌ منه إلى أن يتميَّزَ بشيء يخصُّه ربُّه به.

فبيَّن جلّ وعلا في هذا الحديث أن السماواتِ السبعَ وعامِرَهُنَّ، يعني: من يكون في السماوات غير الله عز وجل –وهذا الاستثناء لأن الله عز وجل على السماوات وليس داخل السماوات، إنما هو الذي داخلُ السماواتِ هو الملائِكة- وعامِرَهُنّ غيري والأرَضين السّبع في كِفَّة –وهذا هو الأشهر في ضبط هذه الكلمة، أنها بالكسر، وبعض أهل اللّغة جعلها بالفتح: كَفَة، وبعضهم قال: هي من مُثَلَّثِ الكلام، يعني هذه الكلمة مُثلَّثة، كِفّة وكَفّة وكُفّة، لكنّ الأشهرَ فيها هو الكسرُ- قال: ولا إله إلا الله في كِفّة، مالت بهِنّ لا إله إلا الله، بعني: رجحت بهن لا إله إلا الله، وهذا الحديث مما يبيّن عظيم قدر وفضل هذه الكلمة، وهذا وجه إيراد هذا الحديث في الباب.

وهل المقصود بهذا الحديث بيان أن كلمة التوحيد أعظم من كل شيء، أعظم من السماوات وأعظم من الأرض؟ أو بيان أن هذه الكلمة في الميزان الأُخرَوِيّ أعظم من سائر الذّنوب؟

يظهر من صنيع الإمام في إيراده مسألةً في مسائل الباب أنه يرى أن هذا الميزان الذي جاء في الحديث هو الميزان الأخرويّ، وأن لا إله إلا الله لو قُوبِلَت بذنوب كقَدر السماوات والأرض لكان التوحيد أعظم، ولَرَجحَت بتلك الذّنوبِ كلمةُ التوحيد، ومن أهل العلم من رأى أن هذا الحديث لا علاقة له بالميزان الأخروي، وإنما المقصود تمثيلُ عظمة كلمة التوحيد وبيان كبير فضلها، والله عز وجل أعلم.

وللترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: يا ابن آدم لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقُرابِها مغفرة".

هذا الحديثُ حديثُ أنس عند الترمذي، وهو حديث قُدْسِيٌّ، وأوّله: "قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أُبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنَان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقُرابِها مغفرة"، وهذا ذكر المؤلّف أن الترمذيَّ حسّنه، وفي النسخة المطبوعة لا يوجد هذا التحسين، لكن –كما تعلمون- هو آخر حديث الأربعين النووية، والحافظ ابن رجب في شرحه على الأربعين ذكر أن إسنادَه لا بأس به، وصحّحَه كذلك ابن القيم في مدارج السالكين، وحسّنه الشيخ ناصر رحمه الله.

هذا الحديث فيه بيان فضل التوحيد وأنه مما يُكفّر الذنوب، وفيه يقول الله عز وجل: "يبن آدم لو أَتَيْتني –يعني: مِتَّ– ومعك قراب الأرض خطايا" قُراب بالضّم على الأشهر وقيل بالكسر، يعني: مِلؤها أو ما يقاربُ ملأها "لأتيتك بقرابها مغفرة"، وهذا يدلُّك على عظيم فضل التوحيد، وأنه من أعظم مكفرات الذنوب، بل قال ابن القيم رحمه الله: إن التوحيد الذي هو توحيد –لاحظ هنا، يعني: التوحيد الكامل– أعظم تكفيرا للذنوب من التوبة. ومعلوم أن "التائب من الذّنب كمن لا ذنب له"، وأن "التوبة تجُبّ ما قبلها"، التوحيد الذي هو أكمل ما يكون من التجريد والإخلاص، فإنه أعظم محْوٍا للذنوب من التوبة.

وهذا الحديث يُفهم كما سلف؛ وبيان ذلك: أنه إذا أتى بقُراب الأرض خطايا، ولَقِيِ الله عز وجل بالتوحيد الذي من مضمونه عدم الشرك، فإن الله عزّ وجل يغفرُه له، وليس هذا حاصلا لكُلّ من أتى بالتوحيد أو ترك الشِّرك، وهذا كما أسلفت راجع إلى القاعدة الماضية، وإلى الأصل الأصيل: أن من أهل التوحيد من سيدخل النار ثم يخرُجون منها، فليس كل من جاء بالتوحيد وترك الشرك يحصل له هذا الأمر، إنما هذا بمن أتى بالتوحيد الكامل، فقال لا إله إلا الله بصدق ويقين وإخلاص تامّ، والناس مُتفاوِتون في هذا المقام تفاوُتا عظيما، ويُعجبني في هذا قولٌ لابن القيم رحمه الله في «الدّاء والدّواء» ذكر فيه: أن كلمة التوحيد عند بعض الناس تكون ميّتة، وعند بعضهم نائمة، إذا نُبِّهت انتبهت، وعند بعضهم مُضطجعة، وعند بعضهم إلى القيام أقرب، كما أنها في القلوب بمنزلة الرّوح للبدن، فقلب ميّت، وقلب مريض إلى الموت أقرب، وقلب مريض إلى الحياة أقرب، وقلب حيٌّ قائم بمصالح البدن.

فالناس متفاوتون تفوتا عظيما في إتيانِهم بهذا التوحيد وفي اجتنابهم للشرك صغيره وكبيره، ومن المعلوم أنه لا يتأتّى البتة أن يلقى الإنسانُ اللهَ عز وجل وهو لا يُشرك بالله شيئا مع إدمانه على كبيرة أو إصراره على صغيرة، فإن هذا التوحيد التّام يلزم منه أن يتألّه القلبُ لله عز وجل وحده لا شريك له، وأن يخرُج منه كلُّ التفاتٍ لغيره، لا التفات إلى هوى، ولا التفات إلى معصية، ولا التفات إلى حُب ما يُبغِض الله أز بُغض ما يُحب الله عز وجل، هذا التوحيد الذي هو بهذا القدر من رُزِقه ومضى عليه في حياته فإنه لا يمكن أن يلقى الله عز وجل بذنوب، وإن وقع بادر بالتوبة، أو أنه يُجدِّدُ توحيدَه ويأتي بهذا التوحيد الكامل، فهذه الحسنة تمحو وتحرق ما سبق من الذّنوب، فيلقى الإنسانُ اللهَ عز وجل بحسناتٍ مُجرّدة عن الذنوب والمعاصي، أريت لو أن إنيانا تاب من ذنوبه قبل موته، فلا شك ـن هذا يعني بمُقتضى النّصوص محْوَ تِلك الذّنوب، لو أن إنسانا جدّد توحيدَه ونطق بـ لا إله إلا الله بصدق ويقين وإخلاص، كانت هذه الحسنةُ أعظمَ نفيا للذنوب وإحراقا لها من التوبة، فحسنة التوحيد أعظمُ من حسنة التوبة، وإذا كانت التوبة من المُكفرات العِظام للسيئات، فإن التوحيد أعظم تكفيرا للسيئات من التوبة.

وفهم هذا النص بهذا التوجيه يزول معه إشكالات كثيرة، ولا يتذرّع به أهل الإرجاء، لأنّهم قد يتذرّعون بهذا النّص وأمثاله، لكن من فهم هذا النص بضميمة النصوص الأخرى وجمع وألّف بينها فإنه يزول عنده الإشكال، وتستقيم عنده الأمور، ولا يصبح عنده لَبْسٌ أو إشكال في شيء منها.

لعلّنا نكتفي بهذا القدر ونُتمّم إن شاء الله في اللّقاء القادم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبيِّنا محمد.